﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٦٥﴾ [البقرة: 265]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد بيانِ مَثَل الصَّفوان، ناسَبَ التَّمثيلُ بما هو شبيهٌ به، قريبٌ منه، فإنَّ الصَّفوان الذي عليه ترابٌ، شبيهٌ في الظَّاهر من بعيدٍ بالرَّبوةِ، مُختَلِفٌ عنها في الباطن، فيا لِقَسْوةِ الصَّفوان، وما ألينَ تربة الرَّبوة! والمُنْفِقُ المرائي يُشابِه المنفقَ المخلِصَ في الظَّاهر، ويختلفُ عنه في الجوهر، وناسَبَ الإتيان بذكر إصابةِ الوابلِ؛ لِيعلَمَ المخاطَبُ الفرقَ بين الأمرين، وأنَّ نزولَ الشَّدائد يكشف عن جواهر الأرض، وانصبابَ المدلهمَّات يُجلِّي معادِنَ الأشياء، فالأمثالُ تبهج السامع كلما كانت أكثر تركيبًا وضمِّنت الهيئة المشبهة بها أحوالًا حسنة، تكسِبُها حُسْنًا ليسري ذلك التحسين إلى المشبَّه، وهذا من جملة مقاصد التشبيه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَتَثۡبِيتٗا﴾: الثَّبَات[2]: دَوَامُ الشَّيْءِ على حالٍ لتحقيقِ غايةٍ مرجوَّة؛ ماديًّا ومعنويًّا، وهو ضدّ الزوال، يقال: ثَبَتَ يَثْبُتُ ثَبَاتًا، وأصلُ الكلمة الحِسِّيُّ مأخوذٌ من قولهم للجراد إذا رَزّ أَذْنَابَه ليبيضَ: ثَبَتَ وأَثْبَتَ وتَثَبَّتَ، وهذا المعنى ملحوظٌ في جميع استعمالات هذه الكلمة في القرآن الكريم؛ فمن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ﴾ [الأنفال: 45]، أي: داوموا على حالكم حتَّى تنتصروا.

وقوله تعالى: ﴿وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾، في مَعْناه أقوال: فَقالَ الحَسَنُ ومُجاهِدٌ: مَعْناهُ أنَّهم يَتَثَبَّتُونَ أنْ يَضَعُوا صَدَقاتِهِمْ، وقِيلَ: مَعْناهُ تَصْدِيقًا ويَقِينًا، ورُوِيَ ذَلِكَ عَنِ ابْنِ عَبّاسٍ، وقِيلَ: مَعْناهُ احْتِسابًا مِن أنْفُسِهِمْ، قالَهُ قَتادَةُ، وقِيلَ: مَعْناهُ أنَّ أنْفُسَهم لَها بَصائِرُ فَهي تُثَبِّتُهم عَلى الإنْفاقِ في طاعَةِ اللَّهِ تَثْبِيتًا، قالَهُ الشَّعْبِيُّ والسُّدِّيُّ وابْنُ زَيْدٍ وأبُو صالِحٍ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/50.

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (ثبت).

وهَذا أَرْجَحُ مِمّا قَبْلَهُ[1]، أي: ليكتسبوا التَّثبيت من أنفسهم المؤمنة، فيُداوِموا على الإنفاق، حتَّى يحصلَ القَبول.

2) ﴿بِرَبۡوَةٍ﴾، الرَّبْوُ[2]: نموُّ الشَّيء تدريجيًّا حتّى يعلو ويُشرف، وسُمِّيت الرَّبْوَة رَابِيَةً كأنّها رَبَتْ بنفسها في مكان، ومنه: رَبَا: إذا زاد وعلا، وأربى عليه: أشرف عليه، والرَّابية: مَا ارْتفع من الأَرْض، والرَّبو: البُهْرُ، وهو عُلُوُّ النَّفَسِ، والأُرْبِيَّتَان: لحمتان ناتئتان في أصول الفخذين من باطن، سُمِّيَتَا بذلك لِعُلُوِّهِمَا على ما دُونَهُمَا، فدلَّت هذه المادّة على الارتفاع التّدريجيّ في ذات الشَّيْء، وهو معنًى ملحوظ في جميع استعمالات القرآن الكريم لها.

فالرِّبَا: زيادةٌ على رأس المال، لكن خُصّ في الشَّرع بالزِّيادة على وجهٍ دون وجه، وباعتبار الزِّيادة قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبًا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ [الروم: 39]، ونبّه بقوله: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ [البقرة: 276]، أنّ الزيادة المعقولة المعبّر عنها بالبركة مرتفعة عن الرّبا، ولذلك قال في مقابلته: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ٣٩﴾ [الروم: 39]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ﴾ [الحج: 5]، وقوله: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ﴾، وقوله: ﴿فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ﴾ [الرعد: 17]، جميع هذه الألفاظ استُعملت في معنى العلو والارتفاع التَّدريجي في ذات الشَّيْء.

3) ﴿فَطَلٌّۗ﴾[3]: الطَّلُّ: أضعَفُ المطَر، إنَّما سُمِّيَ به لأَنَّهُ يُحَسِّنُ الأرضَ، وهو يُطِلُّ على الأرض ويُشرف عليها، مأخوذٌ من الطَّلَل، وهو مَا شَخَصَ مِنْ آثَارِ الدِّيَارِ، وهي التي تُشرف فيراها البعيد، فيتأمَّل بها خيرًا مظنونًا، وكذلك الطَّلُّ فإنَّ من يراه يتأمَّل به خيرًا؛ لشدَّة احتياجه للماء، ولوحِظَ فيه معنى القلَّة، فنُقل عن العرب قولُهم: ما بالنَّاقةِ طَلٌّ، أَيْ: ما بها لبَنٌ، ولا قليلٌ منه، فقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، يُراد به المطر القليل، الذي يُشرف على الزَّرع فيُعطيه حياة ونموًّا، وهي من أفراد ألفاظ القرآن.

(1) الشوكاني، فتح القدير: 1/328.
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ربو).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (طلل).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ضرَب الله سبحانه مثلًا لمَن يَبذُلون أموالَهم في وجوه البِرِّ والخير ابتغاءَ مرضاتِ الله تعالى، وقد بذَلوا أموالَهم مِن تلقاء أنفسهم، ولم يَحمِلهم على ذلك أحدٌ، أو أنفقوا وهم مُوقِنون بوعد الله تعالى على إثابته للمُنفِقين، بحديقة كثيرة الأشجار غزيرة الظلال، تستر أشجارُها ما فيها، وهي في أرض عالية طيبة المَنبَتِ، فنفعتْ غيرَها، باختلاف أنواعِ المياه النَّازلة عليها؛ فإن أصابَها مطرٌ كثيفٌ عظيمٌ زاد خيرُها، وتباركتْ ثمارُها، وكثُر أُكلُها، فتضاعَفَ بكثرة المياه، ونقاءِ المكان، وارتفاعِها عن السّيول، وإنْ أصابَها ماءٌ قليلٌ رقيقٌ، أعطت ثمارَها مضاعفةً، وكذلك نفقات المخلصين تُقْبل عند الله وتُضاعفُ، قَلَّتْ أم كثُرت.

وهو تمثيلٌ لحال المؤمن المنفق، فبقَدَر ما يؤتيه ربُّه من المال الوفير أو النَّزْر اليسير يكون إنفاقه، وبقدر عطائه يكون أجره وثوابُه، وكلٌّ ينمِّي الله له ما أنفق أتمَّ تنمية وأكملها، والله بصيرٌ بعبادِه، مُطَّلِعٌ على قلوبهم وسرائرِهم، فليَحذرِ المنفقون مشابهةَ المنافقين، فإنَّ مَنْ أفسَدَ نيَّته في الصَّدقات، أفسَدَ ذهنيَّته في تصوُّر الجنَّات.

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغة عطف المثَل على المثَل:

مقصودُ العَطْفِ كامنٌ في المقابلَة بين الفريقَيْن حالًا ومآلًا

عُطِف مَثَلُ ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ على المَثَل المُتقدِّم ذكرُه وهو قوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾، العائدِ على مجموع التَّشبيه التَّمثيلي في قوله: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾، ومقتضى العطفِ المقابلةُ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه؛ لبيانِ الفارقِ بين الفريقَيْن في الحال والمآل، و"لِزيَادةِ بيانِ ما بين المرتبتَيْن من البَوْنِ، وتأكيدًا للثَّنَاءِ على المُنْفِقِينَ بِإِخْلَاص"[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/50.

علّة تنوُّع التَّمثيل في حقِّ المنفقين:

التَّدرُّج في التَّمثيل، لإكساب المُشبَّه مزيدًا من الحُسن، بما يُبهِج السَّامع

لَمَّا مثَّل فيما سلفَ بِحَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سبعَ سنابلَ، تَمثيلًا غيرَ كثيرِ التَّرْكيبِ لِتَحْصُلَ السُّرْعَةُ بِتَخَيُّلِ مُضَاعَفَةِ الثَّوَابِ، ولَمَّا مَثَّلَ حَالَ الْمُنْفِقِ رِئَاءً بِالتَّمْثِيلِ الَّذِي مَضَى- أُعِيدَ تَمْثِيلُ حَالِ الْمُنْفِقِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ بِمَا هُوَ أَعْجَبُ فِي حُسْنِ التَّخَيُّلِ؛ فَإِنَّ الْأَمْثَالَ تُبْهِجُ السَّامِعَ كُلَّمَا كَانَتْ أَكْثَرَ تركيبًا، وضُمِّنت الهيئةُ المشبّهُ بِهَا أَحْوَالًا حَسَنَةً تُكْسِبُهَا حُسْنًا؛ لِيَسْرِيَ ذَلِكَ التَّحْسِينُ إِلَى الْمُشَبَّهِ، وَهَذَا مِنْ جُمْلَةِ مَقَاصِدِ التَّشْبِيهِ[1].

سِرُّ إعادةِ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ:

الحثُّ والحضُّ على تكرار الإنفاقِ، حتَّى يرتاضَ المنفِقون على قبولِه

سَبَق فيما سَلَف ذكرُ المنفقين بالاسم الموصول ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾، وأُعيدَ هنا ذكرُهم بالتَّعبير نفسِه، فلم يقُل: (ومثلُ المنفقين)؛ لبيان أنَّ المذكورين هنا هم المذكورون هنالك، مع مزيد إيضاحٍ وإفصاح، في التَّمثيل والتَّلوين، إشعارًا بعُلوِّ مقامِهم، وبيانًا لحُسنِ حالهم، ولتضمين الإعادة الحثَّ على تكرار فعل الإنفاقِ، فإنَّ تكرار الألفاظ يدلُّ على طلب تثبيتها، بالحضِّ على إتيان معانيها، فالآيةُ حثٌّ وحضٌّ على إعادة الإنفاق المرَّة تلو الأخرى؛ ليثبت سلوكًا قويمًا في النَّفس؛ فإنَّ ما اعتيد سلوكُه، ارتيض قبولُه.

بلاغَةُ قولِه تعالى: ﴿ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾:

خُصَّ الابتغاءُ بالاجتهاد في طلب الرِّضوان[2]، فإنَّ المنفقينَ أموالَهم استحقُّوا المدحَ بسبب مزيد اجتهاد، والمرضاتُ رضاه تعالى، مَصْدَرُ رَضِيَ، عَلَى وَزْنِ المفْعَلِ، زِيدَتْ فِيهِ التَّاءُ سَمَاعًا كالمدْعَاةِ والمسْعَاةِ[3]، وإضافتها إلى لفظ الجلالة فيها مزيدُ تعظيمٍ وإجلال،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/50.
(2) الراغب، المفردات: (بغي).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/273.

الابتغاءَ اجتهادٌ لتحصيل الكمالاتِ المُرضيات، قبالة النَّاقصات المُسخِطات، وهو مقدِّمةُ القبول، ومُنتهى الوصول

وقد ورد هذا التَّركيب في القرآن الكريم ثلاث مرَّاتٍ، الأولى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠٧﴾ [البقرة: 207]، والثَّانية: ﴿۞لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمَۢا ١١٤﴾ [النساء: 114]، والثَّالثة في هذا الموضع، وأفاد في المواضع الثَّلاثة الثَّناءَ الواسع، والحمد البالغ، وجميعُها ورد في مقابلة نقيضٍ لها؛ فالأولى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [البقرة: 204]، والثَّانية: ﴿وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ١١٢﴾ [النساء: 112]، والثَّالثة في مقابلة الذين ينفقون أموالَهم رِئاءَ النَّاس، وهذا الأسلوبُ البيانيّ يدلّ على أنَّ الابتغاءَ اجتهادٌ لتحصيل الكمالاتِ المُرضيات، في مقابلة النَّاقصات المُسخِطات، وهو مقدِّمةُ القبول، ومُنتهى الوصول.

بلاغةُ التَّعبير بلفظ التثبيت:

في لفظ التثبيت تمثيلٌ لمنعِ النَّفس عنِ التَّردُّد في الإقدام على الخَيْر

عبَّرتِ الآية ﴿ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ بلفظ التَّثبيت، وهو دوامُ الشَّيْء وترسيخه لتحقيق غايةٍ مقصودة؛ تمثيلًا لكبْح النَّفس عنِ التَّردُّد، أيْ: أنَّهم يَمْنعون أنفسَهم من التَّردُّد في الإنفاق في وجوه البِرِّ، ولا يتركون مجالًا لخواطر الشُّحِّ، وهذا من قولهم: ثبَّت قدَمَه، أيْ: لم يتردَّد، ولم ينْكُص، فإنَّ إراضَةَ النَّفس على فعلِ ما يَشقُّ عليها، لها أثرٌ في رسوخ الأعمال حتّى تعتاد الفضائل، وتصير لها دَيْدَنًا[1].

تردُّدُ حرف ﴿مِّنۡ﴾ بين التَّبعيض والابتداء، ومعنى اللام:

التَّبعيضُ مقوٍّ لجانب التَّمثيل

معنى التَّبعيض في قوله: ﴿وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾: إمَّا يُحمل على التَّبعيض الحقيقيّ، ومعنى التَّبعيض "أنَّ مَنْ بذل مالَه لوجه اللَّه فقد ثبَتَ بعضُ نفسِه، ومَن بذلَ مالَه وروحَه معًا فهو الذي ثبَّتها كلَّها

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/313، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/51.

﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ﴾ [الصّف: 11] "[1]، وإمَّا أن يُحمَل حَرفُ ﴿مِّنۡ﴾ على التَّبعيض المجازيِّ، باعتبار الأحوال، على معنى: تثبيتًا لبعض أحوال النَّفس، وهي حالة الإنفاق[2]، وهذا المعنى أوضحُ في التَّمثيل.

الابتداءُ يدلُّ على صـلاحِ النَّفس وطُهرِها

معنى الابتداء: أيْ: تثبيتًا بَدَأَ من النَّفس، باعتبارها العائق الحقيقيّ للإنفاقِ في غالبِ الأحوال، فإذا كان بدْءُ التَّثبيت منها؛ فإنَّها لَنَفْسٌ عزيزة، ودَيْمومَة الإنفاق أرسخُ وألصقُ بصاحبِها، وفيه مدْحٌ لها؛ فإنَّ الثَّبات على الخيرات إنْ كان ناشئًا عنها فهو يدلُّ على تُرْبتها الصَّالحة، ومَعْدنِها النَّفيس، "فإذا أنفقَ المسلمُ مالَه في سبيل اللَّه، عَلِم أنَّ تصديقَه وإيمانَه بالثَّواب من أصل نفسه، ومن إخلاص قلبِه"[3]، "وفيه تنبيهٌ على أن حكمةَ الإنفاق للمنفق تزكيةُ النفس عن البخلِ وحبِّ المال الذي هو رأس كل خطيئة"[4]، وهذا المعنى أفخمُ في جانب التَّبجيل.

ومعنى الابتداء أقوى وأمتنُ؛ لاتِّساقه مع أصل الكلام في الحفاظ على الصَّدقات من مفترِسات المنِّ والأذى، ومعنى التَّبعيض تابعٌ في حقيقة أمرِه، ومُنتهى حالِه إلى معنى الابتداء، فالقولُ ابتداءً للابتداء، والتَّبعيض بعضُ القول.

دلالةُ تركيبِ: ﴿مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ يؤول إلى معنى اللام:

أشار بعض المفسِّرين إلى أنَّ ﴿مِّنۡ﴾ تنوب عنِ اللّام[5]، أي: تثبيتًا لأنفسهم[6]. والقول بالتَّناوب ينوبُ عنه معنى التَّركيب، فإنَّه يُفيدُ معنى اللّام ضمنيًّا، فإنَّ التَّثبيت المنبعثَ من النَّفس يرجع في الحقيقة إليها؛ فكأنَّه قال: تثبيتًا من أنفسِهم لأنفسِهم، والعكسُ لا يصِحُّ.

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/313.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/51.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/313.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/259.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 2/35.
(6) القاسمي، محاسن التأويل: 2/205.

بيانُ التَّشبيه وأنواعه في الآية:

تمثيليّ لِتَشْبيهِ هيئةٍ معقولةٍ بهيئةٍ محسوسة؛ ليتحققَ الحضُّ ويكتملَ المشهَد

ذُكِر في هذا التَّشبيه الهيئةُ المشبَّهة وهي النَّفقة التي قامت على طلب ابتغاء رضوان اللّه، والتَّصديق بوعده؛ فضُوعِفَت أضعافًا كثيرة، والهيئةُ المشبَّهة بها هي هيئةُ الجنَّة الطيِّبة المكان التي جاءها الوابل فزكا ثمرُها، وتزايَدَ فأكملت الثَّمرة، أو أصابَها طلٌّ فكانت دون ذلك، ووجهُ الشَّبَه هو الهيئةُ الحاصِلَةُ من مجموعِ أشياء تكامل بها تضعيفُ المنْفَعَة[1].

مركّب حالهم في اتباع القلة والكثرة تضعيف الأجر، كحال الجنة في إنتاج الوابل والطل تضعيف ثمارها

والتشبيه لحال النفقة بحال الجنة بالربوة في كونها زاكية متكثّرة المنافع عند اللّه كيفما كانت الحال، أو تشبيه حالهم بحال الجنة على الربوة في أن نفقتهم، كثرت أو قلت، زاكية زائدة في حسن حالهم. كما أن الجنة يضعّف أكلها قويّ المطر وضعيفه. وهذا تشبيه مركّب لوحظ الشبه فيما بين المفردات؛ وحاصله أنّ حالهم في اتباع القلة والكثرة تضعيف الأجر كحال الجنة في إنتاج الوابل والطل تضعيف ثمارها[2].

أنّه من تشبيه المفرد بالمفرد

ويَحتمل وجهًا ثالثًا وهو أن يكون من تشبيه المفرد بالمفرد: بأن تُشَبَّهَ حالهم بجنة مرتفعة في الحُسن والبهجة، والنفقة الكثيرة والقليلة بالطَّلِّ والوابل، والأجر والثواب بالثمرات[3].

سِرُّ التَّعبير بالجنَّة:

الجنَّة تُجلّي النِّعمةَ، وتستجلبُ المسرَّة؛ ممَّا يستدعي أريحيَّة النَّفس، وراحةَ البال

الجنَّة مكانٌ ذو شجر كثير كثيف، يُستَر الكائنُ فيه؛ فاسمُها مُشتَقٌّ من جَنَّ إذا سَتَر، وتُطلَق على ذات الشَّجر المُثمِر المُختَلِف الأصْناف، فأمَّا ما كان نخلًا بحتًا فيُسمَّى حائطًا[4]، فالجنَّةُ أوضحُ أنواعِ الأماكن المُثمرة في ظهور النِّعمة، واستجلاب المسرَّة؛ لذلك

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/52.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 2/342، وينظر: القاسمي، محاسن التأويل: 2/206.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 2/342، وينظر: القاسمي، محاسن التأويل: 2/206.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/52.

كان التَّعبير بها ممَّا يستدعي أريحيَّة النَّفس، وراحةَ البال؛ فتُتلقَّى المعاني كتلقِّي الأشجار العَطْشى لوابلِ السماء.

فنُّ الجِناسِ المصحَّف:

الجمْعُ بينَ أصْلِ الشَّيْء وغايتِه براعةٌ لفظيَّة، ودلالةٌ إشاريَّة

بين قوله تعالى: ﴿حَبَّةٍ﴾ في المَثَل السَّابق، وبين ﴿جَنَّةٍۭ﴾ في المَثَل اللّاحق جِناسٌ مُصحَّف[1]، فقد أُهمِل نقطُ حرفِ الحاء، وأُعجِم حرفُ الجيم، كذلك اختلف حرف الباء والنون من حيث النَّقط، وهذا الفنُّ البديعيُّ فيه جمالٌ لفظيٌّ يورِّث الإعجابَ، فإنَّ الحبَّة هي أصلُ الجنَّة، فبدأ بذكر الأصل في المَثَل السَّابق وهو الحبَّة، وانتهى بذكر الغاية في المَثَل اللاحق وهي الجنَّة، فجَمَع بين أصل الشَّيْء وغايتِه على غاية ما يكون عليه الانتقاء من الألفاظ، ومثلُه لا تجِدُه إلّا في مثله.

توجيهُ تخصيصِ الرَّبوَة بالذِّكر:

ارتفاعُ الرَّبوَة يُعطيها الحمايةَ الذّاتيّة، ويزيدُ عطاءَها

الرَّبوة مكانٌ مرتفعٌ من الأرض، مُشرِفٌ على غيره، قريبة من معنى التَّلَّة، إلّا أنَّه يُلاحَظُ فيها معنى النُّموّ؛ لما يربو فيها وينمو من الأشجار والزُّروع، وارتفاعُ الرَّبوَة يحميها من السُّيول الجارِفة، وتدفُّقِ الأحجار العاتية، ويُقلِّل من سوم الحيوانات الآكلة، وهذه فوائد جمَّة، يصعب اجتماعها في كل جنَّة، فالرَّبوة "مكانٌ مرتفعٌ، مأمونٌ من أن يصطلِمَه البردُ لِلطافة هوائه بهبوب الرياح المُلطِّفة له؛ فإنَّ أشجارَ الرُّبى تكون أحسنَ منظرًا وأزكى ثمرًا، وأمَّا الأراضي المنخفضةُ فقلَّما تسلم ثمارُها من البرد؛ لكثافة هوائِها بركود الرياح"[2].

فائدةُ تَكرارِ قوله: ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ في المَثَلين المتقابِلَيْن:

ذُكر قولُه تعالى: ﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾ في ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ

(1) الجناس المصحف: ما تماثل ركناه في الحروف، وتخالفا في النقط. يُنظر: الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 328، والأولى استبدال هذا المصطلح بمصطلح الجناس المُنقّط، لتحاشي لفظ التصحيف.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/259.

تأمُّلُ الاختلافِ بين إصابةِ الوابلِ للصَّفوانِ مَحْقًا، وإصابتُه للجنَّة بركةً

ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: 264]، وفي هذا المَثَل، جاء: ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾، وهو من قبيل تكرار اللفظ الواحد، والمعنى مختلف في سياقٍ واحد، وسمَّاه أبو هلال بالتَّعطُّف[1]، وزَعَم أنْ لا وجودَ له في القرآن إلّا في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الروم: 55]، وفائدةُ هذا النَّوع تعيينُ المقابلةِ إيماءً، فإنَّ ذكر قوله: ﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾ و﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ في مَثَلَيْن متقابلَيْن مختلِفَين، يدعو المتأمِّل لفهم الاختلاف بين إصابة الوابل للصَّفوان، وإصابته للرّبوة؛ فإنَّ إصابةَ الأوَّل مَحْقٌ، والثَّاني بَرَكةٌ، لإدراك أنَّ العبرةَ فيما يُصيبُه الوابلُ لا فيه، كما أنَّ العبرةَ في حالِ مَنْ يُنفقُ، لا في النَّفقةِ نفسِها!

حقيقة إسناد الإيتاء إلى الجنّة:

أسند العطاء إلى الجنّة لتوافر الأسباب التي خلقها المولى القدير فيها

الفاء في: ﴿فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾؛ "للسببية، أي: أنّ ما قبلها سببٌ لما بعدها، وآتت بمعنى أعطت، والمعطي في الحقيقة هو الله تعالى، ولكن أسند إليها العطاء لتوافر الأسباب التي خلقها المولى القدير فيها، وتضافر كل المهيئات التي هيأها المولى العلي القدير لإنتاجها"[2].

سرّ التّعبير عن الثّمر بـ (الأُكل):

سرُّ التعبير بالأُكل القطْعُ بالاستفادةِ من نِتاج الجنَّة، والنَّصُّ على البرَكة

إسنادُ الإيتاءِ إلى الجنَّة في قولِه: ﴿فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا﴾ مجازيٌّ، وهو يُصوِّر حالةَ العطاء والبركة، واختيار الأُكل دون الثِّمار أو الحبّ، أو الزَّرع، أو الخير؛ لزيادة الطّمأنينة في القَبول؛ فإنَّ التَّعبير بالأُكل عن نتاج الجنَّة يؤكِّد الاستفادةَ منْها، فليس كلُّ ما تُنتجُه الجنَّات يُستفاد منه عادةً؛ فقد يُحرَق، أو يُتلف، أو يُسرق، أو تُصيبُه جائحةٌ، وهذا معروف معهود، فالتَّعبيرُ بالأُكل يقطعُ بأنَّ نتاج الجنَّة قد استُفيد منه، وذكرُ قَيْد ﴿ضِعْفَيْنِ﴾، أكَّد بركةَ الجنَّة

(1) أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص: 420.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/986.

في الدّنيا، فإنَّ اجتماع الطَّلِّ، مع كون الجنَّة بربوة، ممَّا يزيدُ من العَطاءِ والبَرَكة.

في التعبير بالأُكل إشارةٌ إلى طِيبِ ثَمَرِ الجنّة وحُسْنِهِ

"الأُكل: الثمر الذي يؤكل، وفي التعبير عن الثمر بالأكل من غير وصف سواه إشارة إلى طيب ثمرها وحسنه، واستساغة النفس له، وجودة الغذاء منه؛ لأنه وصف بأخص ما يطلب له الثمر الجيد الطيب المستساغ وهو أن يؤكل"[1].

وجه تحديد المقدار بضعفين:

تأويل الضعفين بالكثرة أبلغ في التشبيه للنفقة بالجنة

ذهب أبو حيان إلى أنّ " قوله: ﴿ضِعْفَيْنِ﴾، مما لا يزاد به شفع الواحد، بل يكون من التشبيه الذي يقصد به التكثير. وكأنه قيل: فآتت أكلها ضعفين، ضعفاً بعد ضعف أي: أضعافاً كثيرة، وهذا أبلغ في التشبيه للنفقة بالجنة؛ لأن الحسنة لا يكون لها ثواب حسنتين، بل جاء: تضاعف أضعافاً كثيرة، وعشر أمثالها، وسبع مئة وأزيد"[2].

الضعف المثل أو المثلين، أو الإتيان مرتين مدحًا فيها وتأكيدًا في أوصاف حسنها

ونقل ابن عرفة عن مُفَسِّرين أنّ (الضِّعف) هو المِثْل، أي آتت أُكلها المعهود على مرتين أعني: آتته وآتت مثله معه، أو مثليه، وعلى هذا يكون المعنى: فأتت أكلها أربع مرات، وعلى القول الآخر يكون المعنى: فإن أصابها الوابل تؤتي أكلها مرتين، وإن أصابها الطلّ فقط تؤتي أكلها مرة واحدة. وزاد ابن عرفة: ولا يمتنع أن يراد أنها تؤتي أكلها مرتين سواء أصابها وابل أو طلّ ويكون ذلك مدحًا فيها وتأكيدًا في أوصاف حسنها[3].

فائدةُ مجيءِ "إنْ" دون "إذا" في قوله: ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾:

تُفيد (إنْ) مَظِنَّةَ وقوع الأمرِ مع قلَّته، بخلاف (إذا) فإنَّها تُفيد تحقُّقَه، وأفاد مجيؤها هنا تقليلَ توقُّع عدمِ إصابةِ الطَّلِّ للجنَّة لدى

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/986-987.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 2/325.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/321.

السَّامع، إشعارًا بأنَّ الخيرَ العميمَ هو الأصلُ، والخير الأقلّ هو الطَّارئ، والخير المعدوم لا وجود له، "والمعنى أنَّ نفقاتِ هؤلاءِ زاكيةٌ عندَ الله تعالَى، لاَ تَضيعُ بحالٍ، وإن كانت تتفاوتُ باعتبار ما يقارنها من الأحوال"[1].

أَثَرُ الفاصِلةِ في المَثَل ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾:

تضمَّنتِ الفاصِلَة براعةً في البيان لمضمون المَثَل، فجاءتْ بلفظِ الجلالة للتَّنبيه على عظيم العمل، وذُكِر لفظُ العملِ للتَّذكير بأنَّ هذا المَثَل هو مَثَلٌ لأعمال النَّاس، واختير اسمُ ﴿بَصِيرٌ﴾، لإعلام المخاطبين بأنَّ أعمالهم معلومةٌ لله تعالى؛ لاطِّلاعه عليها، ومراقبتِه لها، فهو "ترغيبٌ في الإخلاص، مع تحذيرٍ من الرِّياء"[2].

جمالُ التَّقابلِ بين المَثَلَيْن:

التَّقابُلُ بين الصَّفوان والجنَّة

يمثِّل الصَّفوان نفقة المانِّ والمؤذي بنفقته الآخرين، كما أنَّ الجنَّة تمثِّلُ نفقة المتَّقي بلسانه فُحشَ القَوْل وأذى الجوارح، والنَّتيجةُ أنَّ الصَّفوان تُركَ صَلْدًا، تشبيهًا بالميّت الذي لا يُرجى منه خير، وأمَّا الجنَّة فقد أثمرَتْ وأنبَتَتْ، تشبيهًا بامرأةٍ مِعطاءَة تُؤْتي أُكلَها عن حبٍّ للآخرين.

التَّقابُلُ بين إبطالِ النَّفقات وقبولِها

في المَثَل إشارة عجيبة لقبول النَّفقات، فإنَّ الوابل النّازل من السَّماء يمثِّل الإرشاد الإلهي، والصَّفوان والجنّة يمثِّلان النَّفقات التي يُقدِّمها أصحاب الأموال، فالصَّفوان يمثِّل إبطالَها، والجنَّة تمثِّل قبولَها، فعبَّر عن الإبطال بالصَّلْد، وعن القبول بإيتاءِ الأُكل، وهو ما يُمثِّل الأجرَ العظيم عند الله تعالى، وبقدر الماء النَّازل من السَّماء يزداد الخير، كما أنه بقدر العمل بتشريعات القرآن، يزداد القبول والأجر.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/260.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/260.

التَّقابلُ بين الفاصلَتين:

خُتِم كلُّ مَثَلٍ بفاصلةٍ تُناسِبُه، فجاءَتْ فاصلةُ المَثَل الأوَّل: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 264]؛ لبيان أنَّ المنَّ والأذى بعد الإنفاق من أحوال الكافرين، والله لا يهدي الكافرين ليتَّصفوا - على كفرهم - بصفات المؤمنين؛ فهي تحذيرٌ للمؤمنين.

بينما في فاصِلة المَثَل الثَّاني: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾، فذُكر ما يُشيرُ إلى القَبول مع التَّحذير من مزالق الشيطان، فإنَّ اسم الله البصير يتضمَّنُ مراقبة الأحوال والاطّلاع عليها، فجاءَتْ كلُّ فاصلةٍ بما يناسِب المَثَل الذي سيقت فيه، فالفاصلتان اتَّحدتا في تحذير المؤمنين، مع تباين موضوعهما.

بلاغة الالتفات في الفاصلة:

تغيير جهة الكلام من الغائب إلى المخاطب فيه مزيد تنبيه وحثٍّ على التزامه، وقصد عمومه

في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ إلتفات في لفظ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ على الخطاب، والمعنى: أنه تعالى لا يخفى عليه شيء من الأعمال والمقاصد من رياء وإخلاص، وفيه وعد ووعيد[1]. وتغيير جهة الكلام من الغائب إلى المخاطب فيه مزيد تنبيه وحثٍّ على التزامه، وعموم في شموله وذلكم أبلغ من التخصيص المحتمل لعودة الكلام في الفعل (يعملون)[2] على المنفقين المخلصين، أو المنافقين.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/326.

(2) وهي قراءة للزُّهري بحسب ما ذكر أبو حيان في البحر المحيط: 2/326.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع، سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 4 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-55-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 4 : سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-55-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5828584 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»